العصر الحجري الاخير .

تابع المنشور في العدد الماضي

ان ما أبقاه انسان العصر الحجري الاخير من آلاته التي قدته الحاجة اليها قد وجد معظمه في كثير من جهات أوروبة على تزاميها

واننا بدرسنا هذه الآثار علينا أن لا نكتفي باستطلاع حدود فرنسا فحسب بل أن تتناول أوروبة كلها اذ لم تسع الشعوب القديمة فيها بقعة منها الا استعمرتها وان أكثر ذلك الاستعمار وجدت آثاره قرب مجاري المياه وحول البحيرات وعلى شاطيء كل بوغاز وطئته القدم البشرية

أما المستعمرون في ذاك العصر البعيد فقد يصعب علينا نحن المتأخرين أن نعلم أنواعهم لكثرة الاختلاف في مخلفاتهم دليل تعددهم وتباين نزعاتهم انما علماء الآثار علموا بما وقفوا عليه من الادلة أن أقدم مدنية في العصر الحجري الاخير وجدت في الامكنة المعروفة الآن بالدانمرك حيث عثر المنقبون على جدران بيوت متردمة شيدت خطاً مستقيما على موازاة شاطيء البحر

ولئن جهلنا فصيلة أولئك الدانمركيين القدماء الا أننا نستطيع أن نجزم بصحة كونهم صيادين وما كان كان لديهم قوارب من تجاويف الشجر ملأوها بالمحار وغيره من صغار السمك وتنقلوا عليها متعمقين لجمع الصدف وغيره

* * *

وتبع الصياد الاول القديم الخنزير والثور البريين في الاحراج القريبة منه وصاد كذلك الدجاج المائي في المستنقعات

وكان البرد أواننذٍ قارساً أكثر مما هو اليوم في تلك الانحاء . وكان الصيادون يعودون في الامساء جذلين بما حملوا من صيدهم فيجتمعون حول النار يصطلونها ويطبخون ويأكلون ثم يرمون حول مضاجعهم أصداف المحار وعظام السمك والغزال والخنزير البري

وهذه العظام المطروحة كانت تكون دوائر متسعة ترى على ابعاد موازية لشاطيء

البحر على طول مئات من الاقدام وتنشر كريه الروائح

وظلت نيران الدائمر كيين أجيالا طويلة قبل التاريخ يتألق شعاعها كل ظلام والمنقبون اليوم يعثرون على بقايا تلك الاكوام الصدفية التي تركها أولئك الاقوام درساً للمتأخرين في معرفة أحوال معاش الانسان في تلك العصور الخوالي

ولقد شوهدت آثار أنياب الثعالب في كثير من تلك العظام المتراكمة في باطن الارض فتبين لنا أن الثعالب كانت تتألب حول كومات العظام التي كان يطرحها الانسان القديم لتأكل ما ترك عليها من اللحم وهكذا مع الايام ألف الثعلب الانسان وعاشه وجاوره وحاسنه وكان له صديقاً أميناً ولا مشاحة بأن الثعلب الاول هو جد الكلب الذي نراه اليوم أيضاً

وهناك خلال تلك الاكوام الصدفية عثر المنقبون المولعون بعلم الارخيولوجيا على قطع من الطين المحروق ومن شظايا بعض الاوعية التي طحنتها الايام وكلها شاهد على أن أهل الشمال في العصر الحجري الاخير أدركوا بعض أسرار العلم وعرفوا خواص التراب في جبله بالماء وحرقه وتجفيفه حتى تمكنوا من عمل أوعية وأباريق تدعوها الآنية الخزفية التي وجد شيء كثير منها منذ زمان قديم في أوروبة . ان هذه الاشياء هي احدى اختراعات العصر الحجري الاخير وهذا الاختراع أفاد الانسان الاول في شحذ سكينه الحجري كما نشحذ اليوم آلتنا الفولاذية على حجر الزيت المعروف

ووجد بين الاكوام الصدفية شيء كثير من الآلات كالقدوم والفاس والمكشط وغيرها وكلها ساعدت الانسان القديم على أن يمتلك ما حوله في الطبيعة من حيوان ونبات وجماد

ان الآلات المتعددة التي كان الانسان يحملها قديماً هي بمثابة البخار في وقتنا هذا وأكثرها من الصوان وغيره من الحجارة الصلبة . وقد يشابه القدوم عند انسان العصر الحجري الاخير القدوم بين أيدينا اليوم انما كان ذلك من حجر بمقبض خشبي وهذا من حديد بمقبض خشبي أيضاً

ان الآلات التي نعثر عليها اليوم للأقدمين هي ذات منظر لامع وخفيفة

مصقولة لمرور الزمن على استعمالها . ولقد نرى من الشطط اذا حسبنا أن تلك الآلات الحجرية كانت غير نافعة

ان أحد الميكانيكيين في الدانمرك عثر على قدوم حجري قديم استطاع أن يقطع به في عشر ساعات ستا وعشرين أرزة وأن يصنع منها أخشاباً صالحة كل واحدة منها يبلغ سمكها ثمانية انشات

وأن ميكانيكياً آخر قطع بتلك الفاس خشباً بنى منه داراً كاملة في مدة واحد وثمانين يوماً فنستنتج من هذا أن الانسان القديم قطع الاخشاب أيضا وبنى البيوت وكان على درجة من التمدن وليس كما يظن أنه كان أقرب الى الوحشية منه الى الانسانية

ولم يصل الباحثون الى معرفة درجة العمران البشري في العصر الحجري الاخير من أكوام الاصداف التي عثر عليها الدانمركيون بل ومن آثار المنازل الخشبية القديمة التي وجد شيء كثير منها في سويسرا التي هبطها البناءون الاقدمون فصنعوا بيوتهم اتقاء شر الانسان والحيوان فظهرت قرى صغيرة من عملهم وأقاموا مساكنهم على أرصفة بجدران وأعمدة من خشب وسط البحيرات الغنية بها سويسرا الآن . وأشكال تلك البيوت وهندستها تكاد تتشابه لأن الانسان بفطرته يميل الى التقليد مهما سما في علمه وارتقى في عمله . ولقد عثر في « وانكن » على ما ينيف على خمسين الف كومة كانت قد نقلت الى قصر البحيرة لبناء القرية

واننا بذلك نحكم على أن سكان تلك البحيرات كانوا في حياة ملؤها المحبة والسلم والنجاح . ويظن البعض أن تلك الجزر الخشبية في سويسرا كانت ملاجيء حصينة اذ وجدوا فيها أثاثاً كثيراً من الخشب كالجفان والملاعق وغيرها من القصاع الخزفية والاقداح والجرار . ومن المؤكد أن تلك الاشياء صنعت من غير آلة ومن غير شيء على النار بل بطريقة لم يصل اليها باحثو عصرنا هذا

وكان الماء يجري تحت ركائز وأعمدة تلك البيوت وفيه سمك كثير هو طعام أولئك الاقوام مع المحار وغيره من عالم الماء الذي لم يكن للانسان الاول غنى عنه في الحياة بعد أن هجر الاحراج لشدة وطأة الاعداء عليه وكأني به سئمت نفسه لحوم

الحيوانات واستطاب أكل السمك اللذيذ

وكانت نساء هاتيك العصور البعيدة تجمع بذور الحشائش فتطحنها بالرحى تديره هي وتخبز من عجينها السمك اللذيذ وهو أول عهد الأنسان القديم بالاعتناء بالزراعة فنقل البذور من الاحراج الى المروج قرب البحيرات والانهر وبذرها واستنبتها وحصدها ودرسها وجمعها مؤونة له ولعياله . وأول بذرة اهتدى الأنسان القديم اليها هي حبة الشعير والبرنم أصناف القطاني وهي كثيرة جدا في ذلك العصر

ولقد وجد أكثر من مائة مكيال من الحبوب خزنت في قصر البحيرات تحت القرى المتردمة في « وانكن »

وهنالك على سفوح الجبل وجدت الحقول الصغيرة حيث نمت شجرة السكتان بكثرة .. في ذلك العصر البعيد بعد زمن القطاف جلست النساء جماعات يغزلن وينسجن فطرح الانسان القديم عن بدنه جلد الحيوانات كساءه الاول وليس مما حاكت له زوجه من نسيج السكتان

في مثل هذه المزارع عاش الانسان القديم وهو سائر نحو المدنية بعد أن غادر سكنى البحيرات ولم يجد بدا من ذلك لانه رمى بقوسه ونشابه ونظر الى الارض يستغلها وهو أول باب ولجه فوصل منه الى الزراعة التي قام باعبائها وأمورها أفراد عائلة الانسان القديم كلهم وأصبحت ديدنهم فامتلكوا الارض وعرفوا لها قيمة وانقطع الانسان عن التجوال في طول البلاد وعرضها فقطن بقعة رآها صالحة لحياته وحياة أفراده ولو درى أن هذه الملكية تثير نار الفتن وتقيم الشرور وتفهم الاحقاد معنى الاستعمار لظل متجولا لا يلبث أن يحل مكانا حتى يرحل عنه

وكان من الانسان الغني والفقير فظهر الاستعباد عن طريق القوة وخرجت أول شرارة للخصام

* * *

في الاراضي السويسرية الخضراء المرتفعة وفي القرى بجانب البحيرات حيث الآن تربى المواشي الجديدة أحفاد أحفاد تلك الوحوش التي كان الانسان القديم صياد العصر الحجري الاخير في حرب دائمة معها كانت الخراف والماعز الجبلية تتدرج

مع الانسان في التقرب من التآلف وهكذا مع الايام بانت جيوش الكلاب المتوحشة في أراضي الدانمرك تدنو من الانسان حتى خضعت لسلطانه واستطابت البقاء معه . . .
وظل انسان العصر الحجري الاخير في أوروبة زمناً طويلا لا يعرف كيف ينتفع من قوة الحيوان الذي دجنه ولم يدر أن بعض تلك الحيوانات يقدر أن يحمل الاثقال وما قيه الحصان البري نفوراً من جدود انسان العصر الحجري المتوسط لانهم تتبعوه طمعاً بلحمه ولم يعاملوه بالحسنى فيؤالفهم ويحالفهم

ولاحظ الانسان القديم أن أعضاء الثور البري قوية جداً فاستخدمه بعد مزاولة طويلة في جر المحراث للفلاحة والزراعة في العصر الحجري الاخير ولا يزال هذا النوع من الحيوان في أوروبة مختاراً للقيام بامور الزراعة فكما جر المحراث قديما يجره هو الآن في وقتنا الحاضر . وكانت الفلاحة قديما عبارة عن قلب الارض وعزقها الامر الذي كانت المرأة تنفرد في عملها فيه

وانتقل هذا العلم النفيس من قدماء شمالي اوروبة الى هنود أميركا الشمالية الذين بقوا على تلك الحالة في العمران حتى عهد اكتشاف أرضهم الجديدة حينما كانت نساؤهم يعزقن الارض ويقمن بكل عمل شاق . أما الزراعة اليوم فانها تتطلب السلطة على كثير من الحيوانات التي تفوق بقوتها وحسن مراسها نساء الاقدمين الجبابرة

وترك الانسان الاول ميله الى الصيد وكرس نفسه للعمل في الحقل فبعد ان كان صياداً ألوفاً من السنين أصبح زارعاً وفلاحاً وفي هذا الدور من التاريخ اتخذ رجال العصر الحجري الاخير ما كن لهم توافق حالات الحياة الزراعية

(تتمة الكلام في العدد القادم) نعوم صايغ

بيت لحم (فلسطين)

أحب مكارم الاخلاق جهدي وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلما وشر الناس من يهوى السبابا
ومن عاب الرجال بغير عيب ومن حقر الرجال فلن يهابا